خطاب الشعبويّة في الفكر السِّياسي المعاصر

الزواوي بغوره ■

النـاظر في الشـعبويّة (populisme) ـ بما هي ظاهرة سياسيّة معاصرة، بلغـت في عـام 2016 أَوْجَهَـا مع نجـاح الثلاثي البريكسيت ـ ترمب ـ لو پان (Brexit-Trump-Le Pen)، الذي سُمِّي في حينـه بـِ«اللحظة الشـعبويّة»[1] ـ يدرك مدى انشـغال الباحثين من مختلف الاختصاصات العلميّة الإنسـانيّة والاجتماعيّـة بتحليلها وفقاً لحدَّين أو منظوريـن، **أولهما:** نظري يعمل على تحليل السـمات أو المميّزات الخاصّة بهـا، ومقارنتها بظاهرة الشـموليّة التي عرفها القرن العشـرون. **وثانيهما:** محاولة وصف تجارب شـعبويّة، ميَّزت بشكلٍ خاصٍ عدداً من البلدان في أمريكا اللاتينيّة وأوروبا، والولايات المتحدة الأمريكيّة، منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا.

وفي تقديرنا فإن ثمّـة إمكانيّة لإجراء تحليـل ثالث أو تقديم تصوُّر أو حدٍّ ثالث، يحلل الشعبويّة وفقاً لمنهج تحليل الخطاب، من

1 ـ إليزي فانسـان، **عصر جديد من الشـعبويّة**، ترجمة الزواوي بغـوره، في مجلة: **الثقافـة العالميّة**، المجلـس الوطني للثقافـة والفنون والآداب، الكويت، السـنة الخامسة والثلاثون، سبتمبر ـ أكتوبر 2018، ص12.

■ أستاذ الدراسات الفلسفية، كلية الآداب، جامعة الكويت.

حيث هو وصْفٌ للممارسة الخطابيّة وغير خطابيّة في الوقت نفسه. وتحقيقاً لذلك فإننا سنحاول الإجابة على الأسئلة الآتية: ما الشعبويّة؟ وما أنواعها؟ وما حدودها أو قيمتها بالنسبة للديمقراطيّة ـ والديمقراطيّة الليبراليّة تحديداً ـ بوصفها مثالاً تعمل المجتمعات المعاصرة على تحقيقه؟

أولاً: في الخطاب الشعبوي

من المعلوم أن المفاهيم السياسيّة تتصف بالمعياريّة والوصفيّة في الوقت نفسه، وتتمتع بقيم إجرائية ووظائف إيديولوجيّة، ودلالات متعدّدة تحددها السياقات التاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. وبتعبير آخر: إن المفاهيم السياسيّة تشكل خطاباً مفتوحاً للنقاش والاعتراض والانحياز، مما يجعلها تبدو منفلتة من التحديد العلمي الصارم. ولا يشكّل هذا المعطى المعرفي عيباً في ذاته؛ لأنه يعدُّ جزأً من طبيعة اللغة السياسيّة التي تقوم على (صراع التأويلات) التي تعكس بدرجات متفاوتة صراع القوى الاجتماعيّة ومصالحها، وتعمل على تسويغ الفعل السياسي، وتُمكّن مستعمليها من بناء برامج عمل أو صياغة إيديولوجيّة سياسيّة معينة.

من هنا نستطيع القول: إن المفاهيم السياسيّة مفاهيم مفتوحة لا تفهم خارج مجموعتها المماثلة، أو عائلتها المشابهة، أو تشكيلتها الخطابيّة (formation discursive)، وعلاقاتها الثقافيّة أكثر من علاقاتها المنطقيّة، التي يكون فيها للتاريخ وأحداثه الدور الأساسي في صياغتها. وبهذا المعنى سنستعمل خطاب الشعبويّة ـ من حيث هو مجموعة من المنطوقات أو العبارات المتداولة ـ لتعيين ظاهرة الشعبويّة، وذلك وفقاً لقواعد خاصة، وسياق تاريخي معيّن.

وبناءً عليه فإن الشعبويّة (populisme) لفظٌ مشتق من الشَّعْبِ الذي يُعَدُّ عنصراً محورياً، يستعمله الخطاب الشعبوي، ويوظّفه بدلالات خاصة، وسياقات معينة، سنشير إليها في تحليلنا لهذا الخطاب الذي يتحدّد ـ وفقاً لبعض القواميس في العلوم الإنسانيّة والسياسيّة ـ بجملة من العناصر، منها:

الانحياز إلى الشعب في مقابل النخب، بل وأكثر من ذلك: الميل إلى (تقديس) الشعب، وبخاصة ما تعلق بسيادة الشعب. والعودة إلى الشعب، والعمل على تجاوز الهيئات السياسيّة أو المؤسسات السياسيّة، والاتصال المباشر بالشعب. وبهذا المعنى، فإن الشعبويّة تحاول محاكاة الديمقراطيّة المباشرة التي ميَّزت المجتمعات البسيطة مع أنها جزء من مجتمعات سياسيّة معقدة للغاية، توصف بالمجتمعات ما بعد الصناعية. وفي سعيها للاتصال المباشر بالشعب، فإنها تعتمد على القائد والزعيم (الكارزماتي)، والذي من الممكن أن يكون مجرد سياسي أو مضلل أو ديماغوجي (démagogue).

من المعلوم أن المفاهيم السياسيّة تتصف بالمعياريّة والوصفيّة في الوقت نفسه، وتتمتع بقيم إجرائية ووظائف إيديولوجيّة، ودلالات متعدّدة تحددها السياقات التاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

ولكن إذا كانت الشعبويّة تقدِّر الشعب، أو بالأحرى (تقدِّسه)، وتعارض به النخب الحاكمة؛ فإنها كذلك تستعمله ضدّ الأجانب، والآخر المختلف عن كل ما تراه يشكِّل (الشعب الأصيل). من هنا فإن النداء الموجه إلى الشعب من قبل الشعبويين هو نداء مضاد أو مناهض لما يرونه (خارج الشعب). وبذلك تتسم الخطابات الشعبويّة بالطابع التحريضي تجاه الفئات التي تعتبرها مهدِّدة للشعب. هذا الشعب الذي تصبغ عليه جملة من الفضائل الأخلاقيّة كالأصالة، والصدق، وعدم التكلف، وكل ما يميزه عن النخب التي تُعدُّ في نظرها فاسدة وغير شرعية، وعن الأجانب والأغيار وكل المختلفين عن الشعب (الأصيل).

ولكن سواء توجهت الشعبويّة إلى الشعب من أجل مناهضة النخب أم الأجانب، وتحديداً المهاجرين، فإنها تهدف إلى القطيعة مع النظام السياسي القائم، والتخلص مما تعدُّه أجهزة بيروقراطية، ومن ثم إحداث التغيير الشامل. لذا تنتشر في الخطابات الشعبويّة كلمات أو منطوقات من مثل: (التنظيف)، (الكنس)، (المسح)، (الطرد)... إلخ.

كما يتسم هذا الخطاب بطابعه الاحتجاجي، وبمظاهراته التي يغلب عليها العنف الرمزي المصحوب في بعض الحالات بالعنف المادي، وذلك حتى أثناء الممارسة الانتخابيّة التي تكون في شكل انتخاب مضاد، سواء تجاه رموز سياسيّة بعينها أم برامج سياسيّة، أم النظام السياسي كله. من هنا يصعب تصنيف الخطاب الشعبوي ضمن المعارضة الديمقراطيّة فقط من دون الالتفات إلى طابعه الرافض للنظام الديمقراطي القائم، ولذا يتفق كثير من المحللين والمفكّرين السياسيين على عدِّ الشعبويّة مظهراً من مظاهر (أزمة) الديمقراطي في المجتمعات المعاصرة[2].

ثانياً: في تاريخ الشعبويّة

تعدُّ الشعبويّة ـ من الناحية التاريخيّة ـ ظاهرة سياسيّة حديثة ومعاصرة، ولا يتجاوز تاريخها أكثر من قرن ونصف، إذا أخذنا بالمعطيات التي يقدّمها المؤرخون في هذا المجال، والذين يربطون ظهورها بظهور حركة الفلاحين الروسيّة المناهضة للسياسات الاقتصاديّة للنظام القيصري، وتحديداً حركة النارودنيكية (narodnitchestvo) التي أسسها الكسندر هارزن (Alexandre Herzen)، وكان ينتصر للاشتراكيّة على الطريقة الروسية، وظهرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفي عام 1874 على وجه الدقة[3]. وكذلك ظهور حزب الشعب في الولايات المتحدة الأمريكيّة (People's Party) في عام 1890، المناهض للرأسماليّة الناشئة التي دمرت الأرياف والمزارعين، وفاقمت الفقر والبؤس.

واستُعمل اللفظ في بداية القرن العشرين ـ وتحديداً في عام 1912 ـ من قبل بعض الروائيين الواقعيين الذين أرادوا تصوير أحوال الشعب وعامة الناس، وصاغوا ذلك فيما سموه بـ: البيان الشعبوي[4]. وانتشرت الحركات

2 ـ Pierre – André Taguieff, Populisme, in *Le dictionnaire des sciences humaines,* (sous dir), Sylvie Mesure et Patrick Savidan, Paris, PUF, 2006, p. 802-803.

3 ـ Christian Godin, *Qu'est-ce-que le populisme?* in Cités, n°49, 2012, p. 12.

4 ـ Ibid.

الشعبويّة بين الحربين العالميتين، وبخاصة في ألمانيا وإيطاليا، التي تأثرت بعاملي الهزيمة السياسيّة في الحرب العالميّة الأولى، والأزمة الاقتصاديّة العالميّة في عام 1928، وامتدت إلى بلدان أمريكا اللاتينيّة مثل البرازيل، وبوليفيا، والإكوادور، وغيرها.

ولكن إذا كانت الحرب الباردة في أوروبا قد أدَّت إلى الحدِّ من الحركات الشعبويّة؛ فإنها قد عرفت انتشاراً في كثير من بلدان الجنوب أو بلدان العالم الثالث التي عرفت المدَّ القومي والوطني الذي صاحب الحركات التحررية. إلا أن الطرح العلمي، يفرض علينا الإشارة إلى أن الحركات الشعبيّة في بلدان العالم الثالث التي تحرَّرت من الاستعمار تختلف عن الحركات، الشعبويّة، وبخاصّة تلك التي تنتشر اليوم في البلدان الأوروبية، علماً أن بعض سمات الشعبويّة قد طبعت الحركات الشعبيّة في بلدان الجنوب، وبخاصة من جهة مناهضة النخب، والديمقراطيّة التمثيلية في صورتها الليبراليّة، وتقديسها لبعض الزعماء كما هو الحال في بعض البلدان العربية (مصر، العراق، سوريا، ليبيا، الجزائر). كما أن الحرب الباردة لم تمنع الولايات المتحدة الأمريكيّة من معرفة حركة شعبويّة متمثلة في الحركة المكارتية (maccartisme)، وكذلك الحال في بعض بلدان أمريكا اللاتينيّة.

إذا كانت الحرب الباردة في أوروبا قد أدَّت إلى الحدِّ من الحركات الشعبويّة؛ فإنها قد عرفت انتشاراً في كثير من بلدان الجنوب أو بلدان العالم الثالث التي عرفت المدَّ القومي والوطني الذي صاحب الحركات التحررية.

وتجلّت المرحلة الثالثة في تاريخ الشعبويّة مع انهيار المعسكر الاشتراكي وسقوط جدار برلين، وعودة النزاعات القوميّة، وما أحدثته العولمة من تحولات، سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو التقني، وما أسفرت عنه من ردود فعل، ومنها الشعبويّة التي شكَّلت في السنوات الأخيرة ما اصطلح عليه بـ(لحظة الشعبويّة)، وبخاصة في البلدان الأوروبية.

ويمكننا أن نستخلص من هذه التجربة التاريخيّة المختصرة للشعبويّة ـ من حيث هي ممارسة خطابيّة ـ ثلاثة أنواع من الشعبويات: أولها: الشعبويّة

الزراعية أو الفلاحيــة، التي تقوم على نــوع من التصوير المثالي للشــعب، ومناهضة الرأســماليّة، التي كانت تقوِّض التوازنات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والتقاليد الموروثة، وتمثل نظاماً سياسياً وإيديولوجيا يتناسب مع السياسات أو الإيديولوجيــات الكبرى كـ: (الاشــتراكيّة، والقوميّة/الوطنيّــة، والليبراليّة)، ويندرج في هذا النوع الشعبويات التي انتشرت في أمريكا اللاتينيّة، التي هي نوع من الإيديولوجيات القوميّة، وفي كثير من بلــدان العالم الثالث، بما في ذلك البلدان العربية.

وثانيها: الشــعبويات الوطنيّة التي انتشــرت بين الحربيــن العالميتين، والناتجة عــن وطأة الهزيمة التــي اعقبت الحرب العالميّــة الأولى، والأزمة الاقتصاديّة العالميّة الحادة، وهو ما تمثله ـ كما هو معلوم ـ الحركتان النازيّة والفاشيّة.

وهنالك النوع الثالث الذي يمثِّل الشــكل الجديد من الشعبويّة المنتشر حالياً في أوروبا بشــكلٍ خاص، ويتميّز بتوجهه المناهــض للنخب، والعولمة، والمهاجرين، مع مواقف عنصرية مكشوفة[5].

وهذا يعني أن منطوق الشــعبويّة قد اســتعمل للإشــارة إلــى الحركات المناهضة للرأســماليّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولتعيين إيديولوجيّة شمولية عنصرية بين الحربين العالميتين، وفي ثمانينيات القرن العشــرين، استعمل بشكل قدحي ليشــير إلى (خطاب الآخر)، كما قال پـول ريكور، واستعمل كذلك لتعيين حركات (مهددة) للديمقراطيّة الليبراليّة.

وأســباب ظهورها وتجددها عديدة، منها ما هو سياســي واقتصادي، كما أشــرنا إلى ذلك، ومنها ما يعود إلى ما ســماه أحد الباحثيــن بـ: (الثقافة الراديكاليّة) التي تسرَّبت عبر القرون، ونشَّطها المستاؤون من العولمة. وعُدَّ عام 1975 بمثابة العلامة على (نهاية الأمل)، وبداية العولمة الفردانية، وكانت النتيجة: «الغضب الجماعي»[6].

5 ـ Pierre – André Taguieff, Populisme, in *Le dictionnaire des sciences humaines*, op.cit., p. 883-884

6 ـ إليزي فانسان، **عصر جديد من الشعبويّة؟** مرجع سابق، ص12.

ويتفق هذا التفسير مع تفسيرات كثيرة لعلماء الاجتماع، مثل إريك فاسين (Eric Fassin)، في كتابه: **الشعبويّة: الغضب الكبير**[7]، وغيره ممن يرون أن الشعبويّة تتجذر في الشعور بالخوف وعدم الأمن من قبل المهيمنين (الرجال البيض على وجه الخصوص)، الذين زعزعتهم منافسة الأقليات الصاعدة (النساء، والمهاجرين). ويلحق بهذه الرَّضّة أو الصدمة الشغف الكبير بفكرة الأُمة بوصفها مرجعيّة عليا، وتلتقي حولها ولوحدها مختلف (العائلات) السياسيّة، وهذا يعني أن الانفعالات (المشاعر، العواطف، اليأس) تشكِّل إحدى الآليات الأساسية للشعبويّة[8].

إنّ منطوق الشعبويّة قد استعمل للإشارة إلى الحركات المناهضة للرأسماليّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولتعيين إيديولوجيّة شمولية عنصرية بين الحربين العالميتين، وفي ثمانينيات القرن العشرين.

ثالثاً: في أنواع الخطاب الشعبوي

على الرغم من رفض بعض الشعبويين التصنيف السياسي الكلاسيكي، الذي يقسم المجال السياسي إلى اليسار واليمين والوسط، وأقصى اليمين واليسار، وتأكيد بعض الباحثين على أن الشعبويّة ليست نظرية أو إيديولوجيّة، وإنما هي مجرد خطابة (rhétorique)[9]، و«أسلوب للتعبئة والاحتجاج على المعاناة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة قبل أن تكون نظاماً للحكم»[10]، وذلك بحجة أنها ملازمة للأزمات الحادة التي وإن هي لم

7 ـ Eric Fassin, *Populisme, Le grand ressentiment*, Paris, Editions Textuel, 2017.
يحلل فاسين ظاهرة الامتناع عن الانتخاب عند الفئات الاجتماعيّة (الفقيرة)، وينتقد الأطروحة القائلة: (انتصار الشعب على النخب)، داعيا أحزاب اليسار إلى ضرورة تمثيل صحيح لمطالب الممتنعين.

8 ـ انظر الآتي: Adam Shatz, «Le vote blanc ou la revanche des homes blancs», *Mediapar*.10 Novembre 2016&Eva Illouz, «Le populisme émotionnel menace la démocratie», *Le Monde*, 27 Juillet 2017.

9 ـ Pierre – André Taguieff, «Le populisme et la science politique», in *Les Populismes*, ouvrage collectif dirigé par Jean-Pierre Rioux, Paris, Perrin, coll. «*tempus*», 2007, p. 31-34).

10 ـ برتران إدي ودومينيك فيدال، **عودة الشعبويات**، ترجمة نصير مروة، مؤسسة الفكر العربي، بيروت ـ لبنان، 2019، ص 10.

تستبعد الإيديولوجيات أو النظريات، فإنها تقلل من قيمتهما، بالإضافة إلى أن هذه الشعبويات تتكون من خليط أو مزيج من الأفكار التي تصل إلى حد التناقض؛ لـذا يذهب هـذا الطرح إلى عدِّ الشـعبويّة مجرد سياسـة أو بالأحرى ممارسة سياسيّة أكثر منها إيديولوجيّة أو نظرية، وأنها دليل على «فشـل الإيديولوجيّة»[11]. ولكن حتى هذا التوجه نفسه لا يتردَّدُ في الإقرار أن للشـعبويّة قواسـم مشـتركة، بل وأكثر من هذا فإنه يرى أنها تشكِّل «منهجاً سياسياً»[12].

وإذا كانت الشـعبويّة منهجاً؛ فإن الفهم الأولي للمنهج يتضمن جملة من العناصر المتآلفة، وهو ما لا يمنع من وصف الشعبويّة بالتنوع الشديد، سواء من الناحية التاريخيّة أم الجغرافية أم الخطابيّة، كما أشرنا إلى ذلك بشكلٍ عام في العنصر السابق، ولا يمنع أيضاً من الإقرار بوجود أكثر من توجّه في الشـعبويّة، أظهرُها ـ على الأقل ـ الشـعبويّة اليمينيّة واليسـاريّة، وعليه فإن الشـعبويّة لا تقتصر علـى الاتجـاه اليميني الشـائع، أو ما يسـمى اليمين المتطرف؛ لأن الشعبويّة تنقسـم هي أيضاً إلى اليمين واليسار، وكل واحدة منهما تحاول تقديم خطاب مغاير، سواء على مستوى المعايير أم الأهداف[13]. لذا نعتقد أنه على الرغم من القواسم المشتركة التي تشكّل الخطاب الشعبوي فإنه ـ مع ذلك ـ يمكن تصنيفه إلى نوعين أساسيين.

أ ـ خطاب التأسيس:

يُعدُّ الفيلسوف الأرجنتيني إرنستو لاكلو (Ernesto Laclau): (1935 ـ 2014) أهم منظِّـر للشـعبويّة في شـكلها اليسـاري، الذي يحـاول تأسـيس نظرية وإيديولوجية تستند إلى مفهوم الشعب. وينتمي لاكلو إلى الماركسية الجديدة أو ما بعد الماركسية، ويعتمد في قراءته للتجربة الشـعبويّة الأرجنتينيّة البيرونيّة

11 ـ المرجع السابق، ص17.

12 ـ المرجع السابق، ص18.

13 ـ Catherine Colliot-Théléne, «Le terme “populisme” est un obstacle à une analyse sérieuse des transformations de la politique», *Le Monde Idées*, 11novembre 2016.

(peronisme)[14] على خلفية نظرية شديدة التعقيد تجمع بين الماركسيّة، والبنيوية والبنيوية، الجديدة، والفرويدية. وعرض نظريته الشعبويّة في صيغتها النهائيّة في كتابه: **العقل الشعبوي**، إلا أنه سبق وأن تناولها في كتابين أساسيين هما: **حرب الهويات، والسياسة والإيديولوجيّة في النظريّة الماركسيّة**.

يرى لاكلو أن النظريّة الشعبويّة تمثل حلًّا للتناقضات العميقة التي تعرفها الماركسيّة، وبخاصة من جهة ذلك التوجه الاقتصادي الذي يربط آليا بين السياسة والعلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة أو ما يسمى في المصطلح الماركسي (البنية التحتية)، والتوجه الماركسي الجديد الذي يمثله الفيلسوف الإيطالي انطونيو غرامشي الذي يرى ضرورة استخراج علاقات الهيمنة من الإيديولوجيّة أو بالمصطلح الماركسي (البنية الفوقيّة)[15]. من هنا، يرى أن: «الشعبويّة هي طريقة لممارسة السياسة بواسطة الخطاب والرموز، قبل بناء أو صياغة أي برنامج عملي منسجم»[16]. وترتبط بالوضعيات الحادة، والنزعات والأزمات الكبرى، والهويات الخاصة، أو بتعبير آخر: بظهور هويات تتميّز بمعارضتها لكتلة أو جناح السلطة الذي يُطْلِق عليه أوصافاً كثيرة مثل: (الأوليغارشيّة، الطائفة، النخبة).

إذا كانت الشعبويّة منهجاً؛ فإن الفهم الأولي للمنهج يتضمن جملة من العناصر المتآلفة، وهو ما لا يمنع من وصف الشعبويّة بالتنوع الشديد، سواء من الناحية التاريخيّة أم الجغرافية أم الخطابيّة.

وفي تقديره فإن الشعبويّة تجعل الديمقراطيّة التمثيليّة قيمة متنازعاً عليها، أكثر من كونها تهديداً لها. لماذا؟ لأن الشعبويّة تدفع بقيمة المساواة إلى حدودها القصوى، ومن ثم تدخل في صراع مع ما يسميه الطابع الأرستقراطي للديمقراطيّة التمثيليّة.

14 ـ نسبة إلى الرئيس الأرجنتيني خوان دومينغو بيرون (1895 ـ 1974)، حكم لفترتين: 1946 ـ 1955، 1973 ـ 1974. كما تشير إلى حزب بيرون القائم على فكرة العدالة الاجتماعيّة.

15 ـ Ernesto Laclau, *Politics and ideology in Marxist theory, Capitalism, fascism, Populism*, London, N. Y, 1977, p. 143.

16 ـ Ernesto Laclau, *La raison populiste*, trad. de l'anglais par Jean-Pierre Ricard, Paris, Seuil, 2008, p.176.

ولا ينكر لاكلو أن الشعبويّة تقوم بعملية بناء صورة الشعب مأخوذة من جميع الفئات المهمشة من قبل الديمقراطيّة التمثيلية، أي مِنْ قِبل أولئك الذين يعدُّون أنفسهم (غير ممثلين، وغير مرئيين، وليس لهم صوت)، وتترجم في خطابات سهلة ومباشرة، وفي صيغ تداولية تقابلية، من مثل: (هم)، (النخبة)، (الحكام)... إلخ، و(نحن)، (المحكومين)، (الشعب)... إلخ. أي أن الشعبويّة تُدخل انقساماً حادّاً داخل المجتمع، مما يؤدي إلى اضعاف الديمقراطيّة التمثيليّة، واضعاف التعدديّة الليبراليّة، وبخاصة عندما تستعمل الشعبويّة خطاب (أعداء الشعب)، وهو ما كشفت عنه حالة الفاشيّة والنازيّة، وأدى إلى القضاء على الديمقراطيّة الليبراليّة.

تقوم نظرية لاكلو على جملة من المقدمات الأساسية؛ **أولها:** ضرورة اعتماد الفضاء الاجتماعي بوصفه فضاء خطابياً، مؤكداً على ضرورة فَهْم الخطاب لا بوصفه عنصراً لغوياً مجرداً، وإنما بوصفه عنصراً لغوياً تداولياً، بحيث ترتبط الكلمات بالأفعال، وتشكّل ما يسميه بـِ(كليات دلالية)، شبيهة بـ(ألعاب اللغة) عند فتغنشتين، أو (التشكيلة الخطابيّة) عند فوكو.

وثانيها: ضرورة الاعتراف بأن الصراع ملازمٌ لكل المجتمعات الحديثة، وأن ثمّة صراعاً بين نوعين من أنواع المنطق، هما منطق الاختلاف (difference)، الذي يتكون من (الخصوصيات الفئويّة، والطبقيّة، والمهنية... إلخ)، ومنطق التكافؤ أو التعادل (equivalence) الذي يتكون من (الجماعة، الأُمة، الخير العام).

وثالثها: إن كل هوية اجتماعية تعني أساساً هوية خطابيّة «تتشكّل عند نقطة الالتقاء بين الاختلاف والتكافؤ»[17]، وهذا يعني أن لاكلو يختلف في طرحه عن أنصار نظرية التعدد الثقافي في صورتها الجماعاتية (communautarisme)[18]، وذلك بحكم أن التعدد الذي يطبع المجتمعات الحديثة

17 ـ Ernesto Laclau, *La raison populiste*, op.cit., p. 100.

18 ـ انظر حول هذا الموضوع: الزواوي بغوره، **الاعتراف، من أجل مفهوم جديد للعدل**، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان، 2012، ص 69 ـ 76.

يجب أن يكون ضمن منطق الوحدة الذي يتمثل في منطق التكافؤ، الذي يسمح ببناء فضاءات اجتماعية متعددة.

ورابعها: إن الصراع الاجتماعي يؤدّي دائماً إلى حالات من الهيمنة مفهومة على أنها: «تلك العملية التي ترفع عنصراً جزئياً ما إلى دلالة كلية لا تتناسب مع نفسها ذاتها»[19]. وتنطبق هذه الهيمنة على حالة الشعب الذي تحوَّل ـ في بعض المراحل التاريخيّة، وفي بعض الحالات والوضعيات التاريخيّة ـ إلى هيمنة شعبية[20].

تُدخل الشعبويّة انقساماً حادّاً داخل المجتمع، مما يؤدي إلى اضعاف الديمقراطيّة التمثيليّة، واضعاف التعدديّة الليبراليّة، وبخاصة عندما تستعمل الشعبويّة خطاب (أعداء الشعب)، وهو ما كشفت عنه حالة الفاشيّة والنازيّة.

من هنا حَلَّلَ منطق تشكّل الهويات الجماعية والشعبية، معترفاً بأن للشعبويّة تجاوزاتها، إلا أن رَفْضَها يعني رفْضاً للسياسة، وحجته في ذلك أن الوحدة القاعدية للهويات الجماعية ليست المجموعة الوظيفية أو البنائية، وإنما المطالب الاجتماعيّة الموجهة نحو النظام القائم. وأن وحدة الجماعة تتمثل في تمفصل مختلف المطالب مع ما يكافئها. وهذا يعني أن لاكلو يرفض ما يسمى بالتشكيلة الاجتماعيّة الثابتة، كالطبقة على سبيل المثال التي تقول بها الماركسية التقليدية.

لذا فإن المقاربة المناسبة لمعرفة الشعبويّة هو النظر إليها بوصفها خطاباً يعكس واقعاً اجتماعياً وسياسياً متعدداً وهذا ما تعززه مختلف الأحداث التي عرفتها الحركات الشعبويّة سواء في نهاية القرن التاسع عشر، أم خلال القرن العشرين، أم في بداية القرن الواحد والعشرين. وهذا يعني أن لاكلو قد قدَّم نموذجاً نظرياً لتحليل الشعبويّة.

وعليه فإنه في الوقت الذي ترى فيه غالبية التحليلات أن الشعبويّة لا تمثل نظرية أو إيديولوجيّة، وتحيل إلى حركات سياسيّة متناقضة؛ فإن لاكلو

19 ـ Ernesto Laclau, *La raison populiste*, op.cit., p. 89.

20 ـ Ibid., p. 140.

قد عمل ليس فقــط على صوغ نظرية للشــعبويّة، وإنما تقديــم ما يعتقد أنه الأساس الأنطولوجي لهذه الظاهرة.

كما نقرأ في هذا الســياق التأسيسي للشعبويّة اليســاريّة إسهامات نظرية للفيلسوفة البلجيكيّة شانتال موف (Chantal Mouffe): (1943 ـ ....) التي تعاونت وكتبت بعض النصوص السياسيّة والفلسفية مع ارنســتو لاكلو، أهمها: **الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكيّة**، و: **نحو سياسة ديمقراطيّة راديكاليّة**، 2008. كما نشرت في العام الماضي 2018 كتاباً مهماً بعنوان: **من أجل شعبويّة يساريّة**.

تتفق موف مع لاكلو على ضرورة رَفْــض الحتميّة الاقتصاديّة التي تقول بها الماركسيّة الكلاســيكيّة، وتعمل مع غيرها على تأســيس ما يعرف بالماركسيّة الجديــدة أو ما بعد الماركســيّة، لفهــم الحــركات الشــعبويّة، وتحويلها إلى استراتيجيّة مناسبة للديمقراطيّة الليبراليّة المعاصرة؛ لذا فإنها ترفض الأحكام السلبيّة الملازمة للشــعبويّة، وبخاصة وصْفَها بالحركات الانفعاليّة، والهدامة، والعدمية، لتؤكد أن الشعبويّة تصلح موضوعاً للدراسة الأكاديميّة، واستراتيجيّة سياسيّة مناسبة للأحزاب اليساريّة، وهي بذلك تستكمل تحليلات لاكلو.

يؤكد هذا تعريفها لفكرة تحويل الشــعبويّة إلى استراتيجيّة؛ تقول: «إنها استراتيجيّة تهدف إلى إقامة الحد السياسي الذي يقسم المجتمع إلى كتلتين/ معسكرين، وتعمل على تعبئة أولئك الذين هم في (الأسفل/ تحت) ضد أولئك الذين هم في (الأعلى/ فوق) أو الذين يملكون السلطة»[21].

ولعــلَّ ما تجب الإشــارة إليه في هذا الســياق هو اختلافهــا في موضوع الانقسام الاجتماعي عن الفيلسوف الألماني كارل شميث[22]، الذي يرى أن هذا الانقسام عدائي، ويتم بين أعداء، في حين أنها تراه يتم بين الخصوم فقط، وداخل الفضاء الديمقراطي، وأن ليس هنالك سياســة من دون خصوم. لهذا

21 ـ Chantal Mouffe, *Pour un populisme de gauche*, trad. P. Colonna d'Istria, Paris, Albin Michel, 2018, p. 23.

22 ـ . انظر حول هذا الموضوع على سبيل المثال، كارل شميث، **مفهوم السياسي**، ترجمة سومر المير محمود، دار مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة ـ مصر، 2017.

فإن الشعبويّة ـ بوصفها استراتيجيّة سياسيّة ـ تتناسب مع الديمقراطيّة الليبراليّة، ولكن ليس في صورتها الليبراليّة الجديدة، أو (النيو ـ ليبرالية) التي عرفتها المجتمعات الأوروبية منذ عام 1970.

تعترف موف أن الليبراليّة الجديدة قد نجحت لفترة محدودة، وحققت هيمنتها، إلّا أنها أصيبت بأزمة عميقة، تجعل من الممكن لليسار أن يؤسس نظاماً سياسيّاً بديلاً من الهيمنة[23]. من هنا فإن الدعوة إلى الشعبيّة تُعدّ محاولة لبناء استراتيجية العودة إلى الصراع بوصفه مبدأً منظماً للحوار العام، ولأنها ترى أن كل نظام اجتماعي هو ـ قبل كل شيء ـ نظام سياسي، ناتج عن هيمنة معينة لعلاقات السلطة. وأن الوضع الحالي للعولمة ليس وضعاً (طبيعياً)، وإنما هو حصيلة هيمنة الليبراليّة الجديدة، وتنظّمه علاقات سلطة خاصّة. وهذا يعني أنه من الممكن إعادة النظر فيه، وأن ثمّة بدائل ممكنة له، ومنها بالطبع الديمقراطيّة الراديكاليّة[24].

إنّ الشعبويّة ـ بوصفها استراتيجيّة سياسيّة ـ تتناسب مع الديمقراطيّة الليبراليّة، ولكن ليس في صورتها الليبراليّة الجديدة، أو (النيو ـ ليبرالية) التي عرفتها المجتمعات الأوروبية منذ عام 1970.

ومن معالم هذه الديمقراطيّة الجذرية أو الراديكالية تجذير قيمة المساواة. وأن الاعتماد على القائد/الزعيم يعدُّ أمراً مسوغاً في مثل هذه الديمقراطيّة الراديكاليّة[25]، بحكم أنه يقوم بدور توحيد المطالب المتعددة في معركة واحدة تتفق في نظرها مع صورة المشرِّع كما رسمها جان ـ جاك روسو[26]. لذا لا تتردد في تأويل نظريّة روسو في الإرادة العامة حتى تتفق مع نظريتها في الاستراتيجية الشعبويّة. تقول: «تهدف

23 ـ Chantal Mouffe, *Pour un populisme de gauche*, op.cit., p. 56.

24 ـ Ibid., p. 277.

25 ـ حول مختلف دلالات هذه الديمقراطيّة، انظر حوارها الآتي:
Chantal Mouffe, Antagonisme et hégémonie, la démocratie radicale contre le consensus neoloberale, Entreien avec Elke Wagner, in *Pensée à gauche, figures de la pensée critique aujourd'hui*, Collectif, Paris, Editions Amsterdam, 2001, p. 225-236.

26 ـ Chantal Mouffe, *Pour un populisme de gauche*, op.cit., p. 103.

الاستراتيجية الشعبويّة اليساريّة إلى بلورة إرادة جماعيّة قائمة على أفعال مشتركة، وتطمح إلى بناء نظام أكثر ديمقراطيّة»[27].

ولعلَّ ما يثير التساؤل حقّاً حول جدارة وجدوى نظريتها ـ أو بالأحرى استراتيجيتها ـ هو رَفْضُها الحكم السلبي على الشعبويّة اليمينيّة، مؤكدة على أهمية النظر في مكوناتها الاجتماعيّة، وفي المطالب التي تحملها الفئات الهشَّة التي تمثلها هذه الشعبويّة. تقول: «بدلاً من (شيطنة) الشعبويّة اليمينيّة، فإن على الشعبويّة اليساريّة أن تبني استراتيجيّة تلبي مطالب تلك الفئات الاجتماعيّة»[28]. وعليه فإن الاختلاف بين خطابي الشعبويتين اليمينيّة واليساريّة يكمن في: «بناء هذا (النحن)، والطريقة التي يرى بها الخصم نفسه»[29]؛ أي أن المسألة متعلّقة بطريقة تلبية تلك الحاجات والمطالب الخاصة بالفئات الاجتماعيّة التي تنتمي إلى الشعبويات.

ب ـ خطاب النقد:

لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن الشعبويّة تظهر دائماً في صورة النقد والقدح وحتى الاستخفاف، وأن الطابع النقدي هو الاتجاه المهيمن على الدراسات الشعبويّة، وذلك لأسباب كثيرة، أَظْهَرُها: أن الشعبويّة، وكما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة، مناهضة للنخب، ومنها النخب العلميّة والفنية والثقافيّة، ومن ثم من الطبيعي أن تكون الشعبويّة مرفوضة ومنتقدة في الأوساط النخبوية. وبالطبع ليس غرضُنا أن نقف عند مختلف أشكال النقد الموجهة للشعبويّة، وإنما سنكتفي بما نعدّه نقداً أصيلاً؛ أي ذلك النقد القائم على معرفة بخطاب الشعبويّة، وبحدوده في الوقت نفسه، وعليه فإننا سنكتفي بالإشارة إلى ثلاثة آراء فلسفيّة سياسيّة تعكس في تقديرنا هذا التصور النقدي.

يرى الفيلسوف الفرنسي جاك رانسيير (Jacques Roncière) (1940 ـ ....) ـ في كثير من دراساته السياسيّة ـ أن الشعبويّة مفهوم لا يشير إلى معنى

27 ـ Ibid., p. 110.

28 ـ Ibid., p. 40.

29 ـ Ibid., p. 40.

محدّد، وإنما إلى معانٍ متعدّدة ومتضاربة، وتقدّم صورة عن الشعب صيغت في نهاية القرن التاسع عشر من قِبل مفكرَيْن أساسيين، هما المؤرخ هيبوليت تان (Hyppolite Taine): (1828 ـ 1893)، الذي اهتمّ كثيراً بمقولة الشعب، والمفكر السياسي غوستاف لوبون (Gustav le Bon): (1841 ـ 1931)[30]، وبخاصة في كتابه: **سيكلوجيّة الجماهير**، واللذَيْن أرعبتهما أحداث ما يعرف بـ: كومونة باريس (la commune de Paris)[31]، وصعود الحركة العماليّة، المتبوعة بالحشود الشعبيّة الأمية والعنيفة[32].

لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن الشعبويّة تظهر دائماً في صورة النقد والقدح وحتى الاستخفاف، وأن الطابع النقدي هو الاتجاه المهيمن على الدراسات الشعبويّة، وذلك لأسباب كثيرة.

واستعملت بين الحربين العالميتين في بلدان أمريكا اللاتينيّة، لتدلّ على طريقة في الحكم تتميّز بالعلاقة المباشرة بين الحاكم والشعب، مستبعدة المؤسسات التمثيليّة، وهو ما عرفته البرازيل والأرجنتين والبيرو، واستعيدت في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين من قبل هيغو شافيز وخلفائه في فنزويلا. وأما في أوروبا، فإن معناها مختلف تماماً عن المعنيين السابقين؛ لأنها لا تحيل إلى طريقة في الحكم، وإنما هي أشبه ما يكون بالموقف الرافض للممارسة الحكومية السائدة.

وتتميَّز هذه الشعبويّة الأوروبية بثلاث سمات أساسيّة: أولها: الخطاب الموجه مباشرة إلى الشعب، ونقد التمثيل السياسي. وثانيها: التأكيد الدائم

30 ـ من أهم كتب غوستاف لوبون في هذا المجال كتاب: **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت ـ لبنان، 1991. كما اشتهر بكتابه: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي، القاهرة ـ مصر 2013.

31 ـ أو الثورة الفرنسيّة الرابعة التي حدثت عام 1871 بعد أن خسر نابليون الثالث الحرب مع بروسيا. وقادت هذه الثورة لفترة محدودة بلدية باريس (72 يوماً) باسم العمال، ودخلت في نزاع عنيف مع الحكومة، وعُرف بالأسبوع الدموي.

32 ـ Jacques Roncière, L'introuvable populisme, in Alain Badiou et autres, *Qu'est-ce qu'un peuple?* Paris, La Fabrique, 2013, p. 138.

على أن ما يهم الحـكام وممثليهم هو مصالحهم الخاصـة، وليس المصلحة العامة. **وثالثها:** الاعتماد على تصور معيـن للهويّة من أجل مناهضة الأجانب والمهاجرين. وعليه، فإن الشعبويّة لا تشير في نظره إلى قوة سياسيّة بعينها، وإنما تستفيد من غموضها لتعبِّر عن مختلف القوى السياسيّة التي تشمل أقصى اليمين مع أقصى اليسار.

وبناءً عليه فإن الشعبويّة لا يمكن تحديدها على أنها إيديولوجيّة سياسيّة أو أسلوب سياسي متسق ومنسـجم، وإنما هي خطاب «يستعمل لرسم صورة عن شـعب ما»[33]. لماذا؟ لأن الشـعب كما يقول: «لا وجود له، وكل ما هو موجود هو صور متنوعة ومتعارضة فيما بينها، ومفضلة بحسب سمات وقدرات معينة»[34]. وبهذا المعنى فإن الشعبويّة تقدّم صورة عن الشعب قوامها ثلاثة معطيات أساسية:

أولها: إن الشعب يتحدّد بطابعه الإثني/القومي المتمثل في الأرض والدم.

وثانيها: إن الشعب مزيج من القدرة الهائلة المتمثّلة في قوة العدد، وفي الوقت نفسـه عدم القدرة المتمثلة في الجهل بهذه القوة العدديّة التي تعمل الشعبويّة على استنهاضها.

وثالثها: إن هـذه الشـعبويّة تقـوم على مبـدأ العنصريّة فـي علاقتها بالآخرين، وذلك من خلال اعتماد صيغة الشـعب الأصيـل والحقيقي، والأُمة الأصليّة والحقيقيّة في مقابل ما تعدُّه زائفاً وكاذباً ودخيلاً[35].

ولكن إذا كانت الشعبويّة تتميّز بتنوعها، وبتأويلها الخاص لمفهوم الشعب، الذي هو مفهوم مركزي في كل حديث عن الديمقراطيّة؛ فإننا لا نستطيع إنكار محاولات التأسيس النظري والإيديولوجي التي قام بها بعض الشعبويين، كما بيَّنا ذلك؛ ولذا فإنه ليس من الموضوعيّة عـدم التمييز بين أنواع الخطابات الشعبويّة، ولو على مسـتوى المواقف. فمثلاً إن موقف الشعبويّة اليساريّة من

33 ـ Ibid., p. 142.

34 ـ Id.

35 ـ Id.

الأجانب والمهاجرين يختلف اختلافاً جذرياً عن موقف الشعبويّة اليمينيّة، وكذلك فيما يتعلق بالموقف من العدالة الاجتماعيّة، والنظام الاقتصادي والاجتماعي المتمثل في الرأسماليّة في صورتها المتطورة.

وضمن هذا التوجه النقدي أيضاً نقرأ إسهامات كثيرة لأستاذ كرسي النظريّة الديمقراطيّة وتاريخها في الكوليج دو فرانس، والمفكر السياسي پيير روزنڤالون (Pierre Rosanvallon): (1948 ـ ....)، ومنها كتابه: **الشعب المفقود، تاريخ التمثيل الديمقراطي في فرنسا**، حيث يرى أن دراسة الشعبويّة يفرض دراسة الشعب، بوصفها مبدأً فاعلاً ومحرّكاً للنظام الديمقراطي الذي يقوم على التمثيل الشعبي والسيادة الشعبيّة. ولكن الشعب هو أولاً وقبل كل شيء واقع اجتماعي، وليس فقط حَشْداً يسير في الشارع، أو مجموعة عددية تظهر في العمليات الانتخابيّة، مما يجعل الشعب في الديمقراطيّة مجرّد عملية حسابيّة أو عددية، وهذا ما يطرح مشكلة التمثيل التي هي أساس الديمقراطيّة.

إذا كانت الشعبويّة تتميّز بتنوعها، وبتأويلها الخاص لمفهوم الشعب، الذي هو مفهوم مركزي في كل حديث عن الديمقراطيّة؛ فإننا لا نستطيع إنكار محاولات التأسيس النظري والإيديولوجي التي قام بها بعض الشعبويين.

ومن هذه الزاوية فإن ما تطرحه الشعبويّة يُعدُّ في نظره فرصة لتعميق فَهْمِنا للديمقراطيّة، وإنجاز وعودها، لماذا؟ لأنه إذا ربطنا بين الشعبويّة ومشكلة التمثيل في الديمقراطيّة، فإننا نستطيع القول: إن ما سبق لماركس أن وصف به الشعبويّة لا يزال صالحاً إلى يومنا هذا، وهو أن الشعبويّة تعدُّ عرَضاً من أعراض الخطر الحقيقي، وتعبيراً عن الوهم في الوقت نفسه، وهذا يعني ـ بتعبير آخر ـ أن الشعبويّة تكشف عن أزمة، وعن الشعور بعدم القدرة، وعن غياب البدائل المقنعة والواعدة.

وإذا كانت الشعبويّة تعبيراً عن أزمة الديمقراطيّة؛ فإنه يجب عدم الاكتفاء بإدانتها أو الشعور بالخوف تجاهها، وإنما يجب العمل على فَهْم معقوليتها، وذلك بحكم أنها تُمثِّل: «عنصراً مُحايثاً (immanent)

للديمقراطيّة»[36]. من هنا سيكون من المفيد مقارنتها بالشموليّة التي عرفها القرن العشرون والتي تعتمد هي أيضاً على الحشد والجمهور، وأكثر من هذا على: «التمثيل المنحرف للشعب»[37]، مع فارق أساسي بينها وبين الشعبويّة، وهو أن الشموليّة لها نظام سياسي محدد، في حين أن الشعبويات متعدّدة، وتظهر في تجارب تاريخيّة متنوعة. ولكن على الرغم من هذا التعدّد والتنوع؛ فإن لها قواسم مشتركة متصلة بخطابها وممارستها.

تظهر هذه القواسم المشتركة في نظر روزنفالون في ثلاثة أشكال من التبسيط:

أولها: التبسيط السياسي والاجتماعي، والذي يظهر جلياً في عدِّ موضوع الشعب موضوعاً واضحاً وضوح البداهة، ولا يتحدد إلا في مقابل النخب.

وثانيها: تبسيط إجرائي وقانوني ومؤسساتي، ويتمثل في القول: إن النظام التمثيلي نظام فاسد، وإن الشكل الحقيقي للديمقراطيّة يكمن في التوجه المباشر إلى الشعب، أي بالمعنى إجراء الاستفتاءات.

وثالثها: تبسيط للروابط الاجتماعيّة، وذلك بحكم أن الشعبويّة ترى أن الرابطة الوحيدة للشعب تتمثّل فيما تعدُّه هويته. ولكن لا تحدد هذه الهوية إلا بطريقة سلبيّة، أي بما ليس هو الشعب، والمتمثل في الآخر، والغريب، والأجنبي، والمهاجر تحديداً.

وإذا صحَّ هذا التشخيص للشعبويّة، فإن ما يجب القيام به هو إجراء خطوات عكسيّة، أو كما قال: «يجب تعقيد الديمقراطيّة»[38]؛ لأن الشعب، والمؤسسات، والروابط الاجتماعيّة ليست معطيات سهلة، وإنما مركّبات معقدة، تستدعي البحث والتحليل.

من هنا فإن أسوأ نهج في الدفاع عن الديمقراطيّة ضد الشعبويّة هو

36 ـ Pierre Rosanvallon, Penser le populisme, in *Le Monde* (21 Juillet 2011) & *laviedesidees. fr*, 27/9/2011, p.4.

37 ـ Ibid., p.5.

38 ـ Ibid., p.7.

الدفاع عــن الوضع القائــم، أي عــن الديمقراطيّــة القائمــة، وأن الأفضل للديمقراطيّة وقِيَمها، التقدّم بمشاريع جديدة لبنائها بناء جديداً؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يزعم أنه يمثّل الشعب وحده، ولأن الشــعب لا يظهر إلّا في أشكال متعددة، وليس هنالك صوت واحد للشعب (vox populi)، وإنما للشعب أصوات متعددة (Polyphonique)[39].

وإذا كان صحيحاً، أن الشــعب لا يتجلّى فــي الديمقراطيّة إلا في صورة عددية، وبناء على نســبة المنتخبين والمقترعين مثلاً، فإن هذا لا يؤدي إلى إلغــاء التجليات الأخرى، بــل إن الديمقراطيّة لا تســتطيع أن تعمل إذا ألغت التجليات الأخــرى، أي أن الديمقراطيّة يجب أن تمثل المجتمــع كلــه، بأغلبيته وأقليتــه هذا على الصعيد الإجرائي، ولكن هنالــك تجليات أخرى، ومنها الوجه الاجتماعي للشــعب الذي يظهر في مختلف المطالب الاجتماعيّة التي ترتبط بمختلف الصراعات الاجتماعيّة، وهنالــك الوجه المبدئي للشــعب المتمثل في القانون، والقواعد الأساسية للعقد الاجتماعي، أو بكلمة الدستور، وهذا يعني: «إن الديمقراطيّة لكي تعرف صوت الشعب، عليها أن تكثر من أصــوات الشــعب»[40]، وأن لا تكتفي بصوتٍ واحدٍ حتى وإن كان يشكّل أغلبية.

إنّ أسوأ نهج في الدفاع عن الديمقراطيّة ضد الشعبويّة هو الدفاع عن الوضع القائم، أي عن الديمقراطيّة القائمة، وأن الأفضل للديمقراطيّة وقِيَمها، التقدّم بمشاريع جديدة لبنائها بناء جديداً؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يزعم أنه يمثّل الشعب وحده.

وبذلك ينتصــر روزنفالون لرأي الفيلســوف الألمانــي يورغن هابرماس القائل: «إن الشعب لا يتجلّى إلا في صورة متعددة»[41]. وليس هنالك شعب في أي مجتمع من المجتمعات يتحدّث بصوت واحد، مما يعني أن الديمقراطيّة تعزز تعدد الأصوات، وتدعّمها بمؤسسات المصلحة العامة التي تدفع نحو خلق حياة

39 ـ Ibid., p.8.

40 ـ Id.

41 ـ Jürgen Habermas, *Droits et Démocratie entre faits et normes*, trad. R. Rochlitz et Ch. Bouchindhomme, Paris, Gallimard, 1997, p.67.

مشـــتركة. وكما يقول: «يجب على الديمقراطيّة أن تنتج الحياة المشـــتركة، ولا تكتفي بالمناسبات الظرفية، كإجراء الانتخابات»[42].

وضمن هـــذا المنحـــى النقدي المؤصـــل، يعتبـــر، في تقديرنـــا، كتاب: **ما الشـــعبويّة؟** للمفكر الألماني: جان ـ ورنر مولـــر (Jan-Werner Muller): (1970 ـ ....) مثالاً نموذجياً للدراسة النقدية الشاملة للخطاب الشعبوي، سواء من جهة أسســـه ومبادئه (النظريّة)، أم من جهة حركاته ومواقفه (الممارسة) وعلاقتها بالديمقراطيّة الليبراليّة[43].

يدافـــع مولر عن فكرة أساســـية هـــي أن تحديد الشـــعبويّة من حيث هي مناهضة للنخب ـ أَمْرٌ ضـــروري، ولكنه غير كاف، ولـــذا يجب أن نضيف له عنصراً أساسياً، ألا وهو أن الشعبويّة مناهضة للتعددية. وأن المطلب الأساسي للشعبويات ـ مع اختلافات هيِّنة في الصياغة ـ هو: «نحن، ونحن وحدنا، الذين نمثل الشعب الحقيقي»[44]. وأن لدى أنصار الشعبويّة ـ على اختلاف توجهاتهم ـ تصور محدَّد للسياســـة، وهـــو أن النخب غيـــر أخلاقيّة، وفاســـدة، وطفيلية، وتتعارض مع شـــعب متجانس ومتخلّق، ومن ثم فإن هـــذه النخب ليس لها أي شيء مشترك مع الشعب[45].

وإذا كانت بعض التحليلات الناقدة ـ كما هو الحال عند روزنفالون ـ ترى أن المشكلة تكمن في التمثيل الديمقراطي؛ فإن مولر يرى أن الشعبويّة لا تهتم بمشاركة المواطنين في اتخاذ القرار، ولا بالتمثيل في حد ذاته، وإنما هي ضد

42 ـ Pierre Rosanvallon, *Penser le Populisme*, op.cit., p.4.

43 ـ Jan-Werner Muller, *Qu'est-ce que le populisme?* trad. rederic Joly, Paris, Gallimard, 2016.
يتكون هذا الكتاب من ثلاثة فصول هي: الفصل الأول: الشـــعبويّة فـــي النظريّة (ص 29 ـ 80)، والفصل الثاني: الشـــعبويّة فـــي الممارســـة (ص 81 ـ 111)، والفصل الثالث: فـــي طريقة تعامل الديمقراطيين ومواجهتهم للشعبويّة (ص 113 ـ 161)، ومقدمةٍ عَرَضَ فيها أسباب ودواعي البحث، وخاتمة تشـــتمل على أهم النتائج في صـــورة أطروحات. انظـــر ترجمتنا لخاتمة هـــذا الكتاب: **ما الشعبويّة؟ عشـــر أطروحات حول الشعبويّة ومســـتقبل الديمقراطيّة التمثيليّة**، في مجلة: **يتفكرون**، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، العدد 13، 2019، ص 70 ـ 73.

44 ـ Ibid., p. 31.

45 ـ Ibid., p. 51.

الممثلين الذين لا يمثلون مصالح الشعب[46]. وأن الذي يمثل الشعب حقيقة هو القائد / الزعيم، بوصفه القادر على تحقيق إرادة الشعب[47]. وأن الشعبويين في حديثهم عن الشعب فإنهم لا يحددونه إلا بطريقة أخلاقيّة؛ أي الشعب الخيِّر في مقابل النخبة السيئة أو الشريرة.

ومن الناحية العملية فإن الشعبويّة تركِّز على فكرة العدو، والبحث الدائم عن أعداء جدد، ولها طريقة خاصة في الحكم، تتمثل في اتباع ثلاث خطوات استراتيجيّة: **أولها:** الاستحواذ الكامل على مفاصل الدولة. **وثانيها:** ممارسة الزبائنية تجاه الحشد أو الجمهور. **وثالثها:** المناهضة الدائمة للمجتمع المدني، وبخاصة وسائل الإعلام[48].

لدى أنصار الشعبويّة ـ على اختلاف توجهاتهم ـ تصور محدَّد للسياسة، وهو أن النخب غير أخلاقيّة، وفاسدة، وطفيلية، وتتعارض مع شعب متجانس ومتخلّق، ومن ثم فإن هذه النخب ليس لها أي شيء مشترك مع الشعب.

ولذا فإن ما يجب أن يقوم به الديمقراطيون تجاه هذه الاستراتيجيات ـ في نظر مولر ـ هو إجراء عملية نقديّة لمفهوم الشعب، وضرورة الإقرار بأننا: «لا نملك نظرية ديمقراطيّة صارمة ومقبولة تسمح لنا بتحديد الشعب»[49]، وأن ما تقدّمه (الجنسية) غير كافٍ، وبخاصة في تحديد موضوع الانتماء[50].

وخلُص إلى جملة من النتائج، منها: أنه إذا لم تكن الشعبويّة ـ والشعبوية اليمينيّة على وجه التحديد ـ إيديولوجيّة سياسيّة مثل الإيديولوجيّة الليبراليّة أو الاشتراكيّة؛ فإنها بلا شك «تُظهر منطقاً داخلياً خاصّاً، يمكن تعيينه على النحو الآتي: الشعبويون ليسوا مناهضين للنخب فقط، ولكنهم مناهضون للتعدديّة بشكل أساسي، ومطلبهم الثابت يقتضي التأكيد على الآتي: نحن ـ ونحن فقط ـ

46 ـ Ibid., p. 55.
47 ـ Ibid., p. 59.
48 ـ Ibid., p. 85.
49 ـ Ibid., p. 116.
50 ـ Ibid., p. 117.

الممثلون للشـعب الحقيقي، ويتسـم طرحهم السياسـي بالتمييز الثنائي ذي الطابع الأخلاقي القائم على الصواب والخطأ، وليس أبداً على التمييز الوحيد بين اليسار واليمين. إن الشعبويّة هي المرادف للاستقطاب، استقطاب يحمل دائماً ميزة أخلاقيّة قوية»[51].

وليست الأحزاب الشـعبويّة مجرد أحزاب احتجاجية أو مجرد أحزاب رافضة للنظام، كما تذهب بعض التحليلات النقدية، مثلما هو الحال عند جاك رانسـيير، والتأكيد علـى أنها غير قـادرة بالتعريف علـى الحكم، بالعكس، عندما يصل الشعبويون إلى الحكم، فإنهم يحكمون وفقاً للمنطق الداخلي للشعبويّة؛ أي: هم، وهم وحدهم الممثلون للشعب الحقيقي، وهذا يعني إنكارهم للمعارضة الشرعية، كما يسـعون إلى الاستيلاء على جهاز الدولة، ويعملون على إضعاف بل وإلغاء التوازن بين السلطات، وكل أدوات السلطة المضادة.

رابعاً: في قيمة وحدود الخطاب الشعبوي

لا شـكَّ أن ما بيَّناه في الصفحات السـابقة يشـير إلى جوانـب نقدية أساسـيّة، ومن ثم فإن الذي يعنينا في هذا العنصر هو استخلاص جملة من النتائج التي تبيِّن قيمة وحدود الخطاب الشعبويّ، وأهمها:

1 ـ تعبِّر الشـعبويّة ـ من حيث هي حركة سياسـيّة مناهضة للنخب ـ عن موقف إقصائي تجـاه كل ما يخالفها. ويتسـاوى في هذا الموقف الشـعبويّة اليمينيّة واليساريّة على حد سواء، وعن تهديد للديمقراطيّة، كما يكشف عن ذلك خطابها بشكل صريح، وبخاصة الاتجاه اليميني.

2 ـ تكشف الشعبويّة بطريقتها الخاصة ـ ووفقاً لفهمها للشعب، وتمثيله ـ عن أزمة التمثيل في الديمقراطيّة، ولذا فإن هنالك من يرى أننا ما دُمنا نحيا في ديمقراطيات تمثيلية؛ فإننا سـنكون دائماً أمام مسألة شعبويّة ما، أو شكل من أشـكال الشـعبويّة، بما في ذلك تلك التي تنفي عن نفسها هذه الصفة،

51 ـ Ibid., p. 164.

سـواء من جهة أحزاب اليمين أم أحزاب اليسـار[52]؛ لأنه من غير الممكن أن يكون هنالك تمثيل موضوعي ودقيق ومحـدد لخطوط الصراع المفتوحة داخل المجتمع، وللشعب كله.

3 ـ مما لا شكَّ فيه أن الشـعبويّة تطرح من جديد مسـألة الشعب التي تعرف عودة غير مسبوقة في الخطابات السياسـيّة، وفي الخطابات الشعبويّة على اختلافها[53]، وبخاصة من جهة افتراضها المسبق لوجود حقيقة تسكن في أعماق الشعب، يتوجب على القائد والزعيم أن يكتشفها، ويعلنها على الملأ[54]. ولكن ـ وكما قلنا ـ فإنه إذا كان الشـعب يتحدّد بحسـب السياقات، ويتضمّن معاني عديدة؛ فإن أهم مشكلة يطرحها الشعب هي مشكلة تمثيله. هذا التمثيل الذي تقوم عليه جميع النظم السياسـيّة، وإن بدرجـات متفاوتة. وهذا التمثيل هو الذي يتعرّض منذ فترة لأزمات حادة، ويجري ضمن ما يسـمى ـ منذ أزيـد من قرنين بالنسـبة للتاريـخ الأوروبـي ـ في إطـار الدولة القوميّـة أو الدولة الأُمة، ويطرح كذلك مسـألة السـيادة القوميّة/الوطنيّـة. وهـذه هـي إحدى القضايا المركزية للشعبويّة، وبخاصة في نقدها للعولمـة، ولحضـور الأجنبـي والمهاجـر، وهو ما يتطلب تجديداً في النظريّة السياسيّة برمَّتها[55].

إنّ الشعبويّة تطرح من جديد مسألة الشعب التي تعرف عودة غير مسبوقة في الخطابات السياسيّة، وفي الخطابات الشعبويّة على اختلافها، وبخاصة من جهة افتراضها المسبق لوجود حقيقة تسكن في أعماق الشعب.

4 ـ ثمّة إقرار من قبل الدارسين للشعبويّة ـ وللشعبوية الأوروبيّة على وجه التحديد ـ بأن النخب السياسـيّة قد فقدت صلتها بالشعب بشكل (مأساوي)،

52 ـ Monica Brito Vieira et David Runciman, *Representation*, Cambridge, Polity, 2008.

53 ـ انظر على سبيل المثال الدراسة الآتية: Alain Badiou et autres, *Qu'est-ce qu'un peuple?* Paris, La Fabrique, 2013.

54 ـ Sandra Laugier &Albert Ogien, Le populisme et le populaire, in *Multitude*, n°61, 2015, p.52.

55 ـ Etienne Balibar, Du populisme au contre-populisme: histoire et stratégie, in *POPULISMUS Interventions* no3, 2015, p. 7-8.

وذلك بحسب عبارة الفيلسوف الألماني هابرماس. وأن هذه النخب تعمل على إقامة حُكْمٍ تستبعد فيه التعدديّة الحقيقيّة، وكل فكر جديد، وكل احتمال للصراع يفرز قوى جديدة، ويطرح مطالب حقيقية، وبلا شك فإن هذه الحالة ـ التي أصابت كثيراً من أحزاب اليمين واليسار، أو ما يعرف بالأحزاب التقليدية في أوروبا ـ هي التي تقف وراء ظهور الشعبويّة.

5 ـ إن الطرح القائل: (على الليبراليين أن يستبعدوا كل الحركات الشعبويّة المعارضة) يطرح إشكالية عويصة؛ لماذا؟ لأنه طرح يقوم على مبدأ المماثلة؛ أي إذا كانت الشعبوية تستبعد المعارضة الديمقراطيّة باسم تصور للشعب، فإن على الديمقراطيين أن يستبعدوا هم أيضاً الشعبويين باسم الشعب نفسه، في حين أن المطلوب من الديمقراطيين الليبراليين أن يتحاوروا مع الشعبويين، ما داموا يحتكمون إلى القواعد الديمقراطيّة في حدودها الدنيا، ولكن إذا لجأوا إلى استثارة مشاعر الخوف، وإذا دعوا إلى استعمال العنف؛ فإن على قانون العقوبات أن يتدخل، لماذا؟ لأن الديمقراطيّة ليست مسألة مقصورة على الحوار والحجة المقنعة، ولكنها تتعلّق أيضاً بإجراءات تسمح بتصحيح المظالم، والتفاوض على معايير جديد للانتماء.

6 ـ يجب إجراء تمييز منهجي بين أنواع الخطابات الشعبويّة، وبخاصة بين شعبويات الجنوب والشمال، أو العالم الثالث وأوروبا، وكذلك بين الشعبويات (اليساريّة) و(اليمينيّة)، هذا من جهة وأما من جهة أخرى، فإنه يجب تعيين علاقتها بالديمقراطيّة، من حيث إنها تعبير عن أزمة التمثيل الديمقراطي، ومن ثم فإن الوسيلة المثلى تكمن في تجديد الديمقراطيّة الليبراليّة، بحيث تستوعب المطالب (المشروعة) للفئات الاجتماعيّة التي تعاني التهميش والاقصاء، ومقاومة الخطابات الشعبويّة بوصفها تهديداً للديمقراطيّة ولعمليات تطويرها، وذلك بالحوار والمناقشة النقديّة القادرة على كشف تناقضاتها وحدودها، وبخاصة من جهة ربط وُعُودها بإنجازاتها، وخطاباتها بممارساتها.